التدرج في طلب العلم

- (العِلم الواحد) أنموذجاً -

منشورات جمعية منتدى العلم النافع (٤)

التدرج في طلب العلم

- (العِلم الواحد) أنموذجاً –

تأليف

فراس بن خليل مشعل

جمعية منتدى العلم النافع
هاتف: ٠٧٧٥٢٥٥٥٩٩
ص. ب: ١٤٣٠١٠-رمز بريدي ١١٨١٤
البنك الإسلامي الأردني
حساب رقم: ١٢٧٧٥/ فرع مرج الحمام.
E-mail: muntada.edu.2011@outlook.com

الفصل الأول

- المطلب الأول: تمهيد
- المطلب الثاني: صلاح المسلمين بصلاح تعليمهم
- المطلب الثالث: وصول بعض الطلبة دون الآخرين
- المطلب الرابع: المدة الزمانية الكافية لتحصيل أصول العلم
- المطلب الخامس: تشخيص الداء = أين الخلل
- المطلب السادس: الأخطاء في طرائق التعلم

المطلب الأول

تمهيد

إن الحمد لله؛ نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِه الله فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله – وحده لا شريك له – .

وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد...

«فلما رأيت كثيراً من طلاب العلم في زماننا:

يَجِدُّون إلى العلم ولا يَصِلون، ومن منافعه وثمراتِهِ- وهي العمل به والنشر - يُحرمون»[1].

فتجدهم «يقضون السنين الطوال في تعلم العلم، بل في علم واحد، ولا يحصلون منه على طائل.

وربما قضوا أعمارهم فيه، ولم يرتقوا عن (درجة المبتدئين)»[2]، فترى الطالب منهم «يَشِبُّ ويشيب، وهو يقرأ، ولم يُحَصِّل شيئاً»[3]؛ ذلك أن «الجهل بالطريق، وآفاتها، والمقصود: يُوجب التعبَ الكثيرَ، مع الفائدة القليلة»[4].

-: استعنت بربي، ذي المننِ والعطايا: على إنشاء تأليف، يصف هذه الظاهرة، ويبين أسبابها، ويتلمَّسُ الحلول لها.

وسألته/ وأسأله سبحانه، لا إله إلا هو، بأسمائه الحسنى وصفاته العلى:

---

(١) «تعليم المتعلم» للزرنوجي (٥٣).

(٢) «المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل» (٢٥٣).

(٣) «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (٤/ ٣٤٧).

(٤) «الفوائد» لابن القيم (٢٥١).

أن يسدد رميتي، وأن يوفق رأيي، وأن يهديني لما اختُلِف فيه من الحق بإذنه، إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم...

فأقول:

- وهذا أوان الشروع في المقصود -

وبه سبحانه، وحده، أجول وأصول:

المطلب الثاني

صلاح المسلمين بصلاح تعليمهم

❖ **قال العلامة عبد الحميد بنُ باديس:**

«لن يصلُح المسلمون حتى يصلُحَ علماؤهم.

فإنما العلماء من الأمة بمثابة القلب، إذا صلَحَ: صَلح الجسدُ كلُّه، وإذا فسدَ: فسَد الجسدُ كُلُّهُ.

وصلاحُ المسلمين: إنما هو بفقههمُ الإسلام، وعملِهم به.

وإنما يَصِلُ إليهم هذا على يدِ علمائهم.

فإذا كان علماؤُهم أهلَ جمودٍ في العلم، وابتداعٍ في العمل: فكذلك المسلمون يكونون.

- يطبعُ المتعلم بالطابَعِ الذي يكون عليه في مستقبل حياته، وما يستقبل من عمله: لنفسه وغيره.
- فإذا أردنا أن نصلح العلماء: (فلنصلح التعليم)»[1].

****

وموضوع كتابنا: هو إجابةٌ لسؤالٍ كثير الترداد، وهو قول القائل: «أطلب العلمَ منذ زمن، ولكني لا أشعر بأني قد حصلت شيئاً يذكر!!

---

(١) آثار ابن باديس (٢/ ٢١٧).

فأين الخلل، وما السبيل الصحيح والجادة المطروقة لتحصيل العلم؛ كما حصَّله من قبلنا من أهل العلم؟».

إنّ من الأمور المسلمات لدى العقلاء: أن من أراد الوصول إلى هدفٍ معين: سلك الطريق الموصولة إليه.

فإذا تعددت الطرقُ: فلا بدَّ أن يبحثَ السالك عن أقربِ الطرق الموصلة إلى مبتغاه.

****

فإذا كان طالب العلم: هو السالك.

وكان العلم: هو المبتغى

فلا بُدَّ لطالب العلم أنْ يبحث عن أقرب الطرق الموصلة إلى تحصيله (العلم الراسخ).

لأن العمر قصير، والعلم كثير، والطرق إليه كثيرة.

لذلك قال العلامة الشيخ ابنُ عثيمين – رحمه الله – في «منظومة القواعد والأصول»:

«٥- وبعدُ، فالعلم بحورٌ زاخرة ... لن يبلغَ الكادحُ فيه آخرَه

٦- لكن في أصوله تسهيلا ... لنيله فاحرص تجدْ سبيلا

٧- فاغتنم القواعد الأصولا ... فمن تفته: يُحرم الوصولا»

****

✓ فإذا كان كلامنا عن (طالب العلم): فيخرج بذلك من لا يحمل هذا اللقب، ممن يطلب العلم، وهو غيرُ جادٍ في الطلب؛ كما أنشد ابنُ فارسٍ:

إذا كنت تأذى بحرِّ المصيف ويُبسِ الخريف وبردِ الشتا
ويُلهيك حُسن زمان الربيع فأخذك للعلم قُلْ لي متى[1]

****

وإذا علمنا أن أهل العلم يقسمون مراحل الطلب إلى ثلاثِ مراحل:

(بدايةٍ، وتوسطٍ، وانتهاءٍ).

أو (اقتصار، واقتصادٍ، واستقصاءٍ).

كان كلامنا عن (طالب العلم المبتدئ، أو المقتصر): فيخرج بذلك (طالب العلم المتوسط أو المقتصد)، و (طالب العلم المنتهي أو المستقصي).

وأخرجنا القسمين الأخيرين؛ لأنه من المعلوم أنه: ما بلغ (التوسط أو الانتهاء) إلا بعد أن عرف الطريق.

---

(١) إنباهُ الرواة (١/ ١٣٠).

المطلب الثالث

وصول بعض الطلبة دون الآخرين

(هل كلُّ من يطلب العلم يحصله؟)

❖ **قال الإمام ابن القيم – رحمه الله- في كتابه «الفوائد» (٢٥١):**

«الجهل بالطريق وآفاتها، والمقصود: يُوجب التعب الكثير، مع الفائدة القليلة».

❖ **وقال العلامة برهان الإسلام الزرنوجي – رحمه الله- في كتابه «تعليم المتعلم طريق التعلم» (٥٣):**

«فلما رأيت كثيراً من طلاب العلم في زماننا: يجِدُّون إلى العلم **ولا يصلون**، ومن منافعه وثمراتِهِ – وهي العمل به والنشر- **يُحرمون**، لَمَّا أنهم أخطأوا طريقهُ وتركوا شرائطه، وكلُّ من أخطأ الطريقَ: ضلَّ، ولا ينالُ المقصودَ: قلَّ أو جَلَّ».

❖ **وقال العلامة ابن بدران – رحمه الله- في كتابه «المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل» (٢٥٣):**

«اعلم: أنّ كثيراً من الناسِ يقضون السنين الطوال في تعلم

العلم، بل في علمٍ واحد، **ولا يحصلون منه على طائل.**

وربما قضوا أعمارهم فيه، ولم يرتقوا عن (**درجة المبتدئين**)».

❖ **وقال العلامة حمدُ بنُ عَتيق – رحمه الله-** :

«فتجد من يَشِبُ ويشيب وهو يقرأ، (**ولم يحصِّل شيئاً**)».

«الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (٤/ ٣٤٧).

المطلب الرابع

(المدة الزمانية الكافية لتحصيل أصول العلم)

❖ **قال العلامة ابن بدران – رحمه الله- في كتابه «المدخل» (٢٥٥):**

«وقد كانت هذه طريقة شيخنا العلامة الشيخ محمد بن عثمان الحنبلي، المشهور بـ (خطيب دوما)...

ولما أخذت نصيحته مأخذَ القَبُول: لم أحتجَ في القراءة على الأساتذة في العلوم والفنون إلى أكثر من (**ستِ سنين**)...».

❖ **وقال العلامة عبدُ الحميد بنُ باديس – رحمه الله- :**

«وعلى هذه الخطة سارَ السيدُ رشيد في تحصيله؛ فإنه حصَّل قواعد العلوم في (**ثمان سنوات**)». «آثار ابن باديس» (٤ / ٢٠٣).

❖ **وقال فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ – حفظه الله- في «ترجمة جده الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ» (١٥):**

«ولذا كان الطالب المُجدُّ منهم: يتخرج في (**سبع سنوات**)».

❖ **وقال العلامة ابن خُلدون – رحمه الله- في «مقدمته» (٩٢٧/٣):**

«ومما يشهدُ بذلك في المغرب: أنّ المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم (ست عشرة سنة).

وهي بتونس (**خمسُ سنين**).

وهذه المدة بالمدارس على المتعارف: هو أقلُّ ما يأتي فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية، أو اليأس من تحصيلها فطال أمدها في المغرب...».

المطلب الخامس

تشخيص الداء = أين الخلل؟!

إذا تقرر لدينا ما سلف، وهو:

١- عدم وصول كثير من طلبة العلم إلى مرادهم: وهو تحصيل العلم النافع، مع بذلهم للأوقات والأعمار!

٢- وأن الأوقات المبذولة لتحصيل أصول العلم: أكثر بكثير من الأوقات التي كان يبذلها أهل العلم لتحصيل أصول العلم!

يرد علينا الآن السؤال التالي:

(أين الخلل؟!)

❖ يجيب عن هذا السؤال الإمام ابن خلدون بقوله:

«ومما يشهد بذلك في المغرب: أن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم (ست عشرة سنة).

وهي بتونس (خمسُ سنين)...

فطال أمدها في المغرب لهذه المدة: لأجل عسرها، **من قلة الجودة في التعليم خاصة، لا مما سوى ذلك**».

«مقدمة ابن خلدون» (٣/ ٩٢٧).

❖ **قال العلامة ابن بدران – رحمه الله – في «المدخل» (٢٥٣):**

«وربما قضوا أعمارهم فيه، ولم يرتقوا عن درجة المبتدئين.

وإنما يكون ذلك لأحد أمرين:

- أحدهما: عدم الذكاء الفطري، وانتفاء الإدراك التصوري.

وهذا لا كلام لنا فيه، ولا في علاجه.

- والثاني: **الجهل بطرق التعليم**».

****

فإذا كان الخلل:

- كما يقول ابنُ خلدون: «من قلة الجودة في التعليم خاصة».
- وكما يقول برهان الإسلام الزرنوجي: «لما أنهم أخطأوا طريقه، وتركوا شرائطه».
- وكما يقول ابن القيم: «الجهل: بالطريق، وآفاتها والمقصود».
- وكما يقول ابن بدران: «الجهل بطرق التعليم».

❍ وجدنا أنه من المتفق عليه بينهم جميعاً: أن الخلل سببه الجهل بـ (طرائق التعليم والتعلم).

****

المطلب السادس

فما هي الطريقة الصحيحة لطلب العلم وتحصيله؟

وما هي الأخطاء التي يقع فيها طالب العلم في رحلته إلى تحصيل العلم؟

والجواب:

أن الأخطاء في طرائق التعلم كثيرة، أذكر وأبين أهمها وأكثرها انتشاراً، ألا وهو: «**ترك التدرج في طلب العلم**».

الفصل الثاني

التدرج

- المطلب الأول: التدرج لغة وإصطلاحاً
- المطلب الثاني: التدرج من صغار العلم إلى كباره

المطلب الأول

التَدَرُج في طلب العلم

١- **التدرج لغةً:**

❖ **قال الفيومي في «المصباح المنير» (٧٣):**

«ودرجته إلى الأمر تدريجاً، فتدرّج، واستدرجته: أخذته قليلاً قليلاً».

❖ **وقال الزبيدي في «تاج العروس» (٥/٥٥٣):**

«درج الشيخُ والصبيُّ، يدرجُ درْجاً ودَرَجاناً...: إذا مشى كل منهما مشياً ضعيفاً، ودباً».

ثم قال: «واستدرجه: رَقّاهُ، وأدناهُ منه على التدريج، فتدرج هو. كدَرَّجَه إلى كذا تدريجاً: عوَّدهُ إياه، كأنما رقَّاهُ منزلة بعد أخرى».

٢- **التدرج اصطلاحاً:**

❖ **قال يوسف أبو هلاله في كتابه «التدرج بين التشريع والدعوة»** (١):

«الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى متقدمة، للبلوغ إلى الغاية المنشودة».

٣- أقسام التدرج:

❖ قال الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم بن قاسم – حفظه الله – في كتابه «الدليل إلى المتون العلمية» (٤٣):

«التدرج ينقسم إلى قسمين:

١. **(تدرج بين العلوم المختلفة):**

مثل أن يبدأ الطالب بعلم التوحيد، فإذا أتقنه، انتقل إلى علم التفسير، ثم علم الحديث، وهكذا، كما هي طريقة المغاربة.

٢. **(تدرج في العلم الواحد):**

مثل أن يبدأ الطالب في علم الحديث بمتن «الأربعين النووية»، ثم «عمدة الأحكام»، ثم «بلوغ المرام»، ثم «منتقى الأخبار».

وهكذا في بقية العلوم».

❖قال العبد الفقير إلى عفو ربه، فراس بن خليل مشعل:

وسأقتصر في هذا البحث على النوع الثاني من أنواع التدرج، وهو «التدرج في العلم الواحد».

وأما النوع الأول – «التدرج بين العلوم المختلفة»-: فأسأل الله أن يُيسر لي إفراده بجزءٍ آخر، أُبين فيه طريقة أهل العلمَ في ذلك.

المطلب الثاني

التدرج من صغار العلم إلى كباره

❖ **قال فضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين — رحمه الله — في «مجموع الفتاوى» (٢٦/٢٠٨).**

«لابدَّ لطالب العلم من مراعاة عدة أمور عند طلبهِ لأي علم من العلوم:

أولاً: حفظُ متنٍ مختصر فيه...

ثانياً: ضبطُهُ على شيخٍ متقنٍ، وتحقيقُ ألفاظِهِ، وما كان زائداً أو ناقصاً.

ثالثاً: **(عدم الاشتغال بالمطولات).**

وهذه الفقرةُ مهمة لطالب العلم؛ فلابدَّ لطالب العلم أن يتقن (المختصرات) أولاً، حتى ترسخ العلوم في ذهنه، ثم يفيض إلى (المطولات).

لكنَّ بعض الطلبة قد يُغرب: فيطالع (المطولات)!!!.

ثـمَّ إذا جلس مجلساً قال: قال صاحب المغني، قال صاحب المجموع، قال صاحب الإنصاف، قال صاحب الحاوي؛ ليظهر أنه واسعُ الاطلاَع.

وهذا خطأ؛ نحنُ نقولُ:

ابدأ (بالمختصرات) حتى ترسخ العلوم في ذهنك، ثـمَّ إذا مـنَّ الله عليك فاشتغل (بالمطولات).

وقياس ذلك بالأمر المحسوس: أن ينزل من لم يتعلم السباحة إلى بحرٍ عميق؛ فإنه لا يستطيع أن يتخلص، فضلاً عن أن يتقن».

❖ **وقال فضيلة الشيخ بكر أبو زيد – رحمه الله – في «حلية طالب العلم» (٢٥ -٣٠):**

«كيفية الطلب ومراتِبُهُ:

- من لم يتقن الأصول: حُرِم الوصول.
- ومن رام العلم جملةً: ذهب عنه جملةً.
- وقيل أيضاً: ازدحام العلم في السمع: مضلةُ الفهم.

وعليه؛ فلا بدَّ مـن التأصيل والتأسيس لكـل فَـنٍ يطلبُـه: بـضبط أصله و (مختصره) على شيخٍ متقنٍ؛ لا بالتحصيل الذاتي وحده، **وآخذاً الطلب (بالتدرج).**

- قـــال الله تعـــالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ **[الإسراء:١٠٦].**

- وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢].

- وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة:١٢١].

فأمامك أمورٌ لابدَّ من مراعاتها في كل فنٍّ تطلُبُه:

١- حفظ (مختصر) فيه.

٢- ضبطه على شيخ متقن.

٣- عدم الاشتغال (بالمطولات) وتفاريق المصنفات قبل الضبط والاتقان لأصله...».

ثم قال:

«فهل من عودةٍ إلى أصالة الطلب في دراسة (المختصرات المعتمدة)؛ لا على المذكرات.

وفي حفظها؛ لا الاعتماد على الفهم فحسب!!

حتى ضاع الطلابُ: فلا حفظَ ولا فهمَ!

وفي خلو التلقين من الزَغَلِ والشوائبِ والكَدرِ: سيرٌ على منهاج السلف».

❖ **وقال فضيلة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ – حفظه الله ورعاه– في «ترجمة جدِّه الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ»** (١٤):

«وهذه (المنهجية في التدريس): هي التي تُخَرِّجُ العلماءَ:

- حفظٌ للمتون.
- وبيانٌ وشرحٌ لها.
- وضبطٌ للأصول.
- ومعرفةُ الأدلةِ.

فبهذا تبنى (القواعدُ العلميةُ الراسخةُ) للمتعلمين.

وأما (القراءةُ في المطولات)، دون إحكام (للأصول والمتون): فعلى أيِّ أُسٍ تُبنى، وعلى أيِّ قاعدةٍ تُرفع!!!

فلابُدَّ للمعلمين والمدرسين من النظر في هذه المنهجية!!!».

❖ **لذلك قال العلامة ابنُ بدران – رحمه الله – في «المدخل»** (٢٥٧):

«وطرقُ التعليم أمرٌ ذوقيٌّ، وأمانةٌ مودعةٌ عند الأساتذةِ:

- فمن أداها: أُثيب على أدائها.
- ومن جحدها: كان مطالباً بها!!!».

❖ **وقال فضيلة العلامة عبد الرحمن بن سعدي – رحمه الله– في كتابه «بهجة قلوب الأبرار» (٤٤):**

«والحالة التقريبية:

أن يجتهد طالب العلم في حفظ (مختصر من مختصرات الفن) الذي يشتغل فيه.

فإن تعذر أو تعسر عليه حفظه لفظاً: فليكرره كثيراً، متدبراً لمعانيه، حتى ترسخ معانيه في قلبه.

ثم تكون باقي كتب هذا الفن: كالتفسير، والتوضيح، والتفريع لذلك الأصل الذي عرفه وأدركه.

- فإن الإنسان إذا حفظ الأصول، وصار له (ملكة تامة) في معرفتها: هانت عليه كتبُ الفن كُلُّها: صغارُها وكبارُها.

ومن ضَيَّعَ الأصولَ: حُرِم الوصولَ.

- فمن حرص على هذا الذي ذكرناه، واستعان بالله: أعانه الله، وبارك في علمه وطريقه الذي سلكه.

- ومن سلك في طلب العلم غيرَ هذه الطريقة النافعة: فاتت عليه الأوقات، ولم يُدرك إلا العناء، كما هو معروف بالتجربة، والواقع يشهد به.

- فإن يَسَّر الله له معلماً، يُحسنُ: طريقة التعليم، ومسالك التفهيم: تَمَّ له السببُ الموصلُ إلى العلم».

❖ **وقال الإمام البخاري – رحمه الله – في « صحيحه »: كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل:**

«قال ابن عباس: ﴿كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾: حكماء فقهاء.

ويقال: الرباني الذي يربي الناسَ (**بصغار العلم**) قبل (**كباره**)».

❖ **وقال الإمام ابن القيم – رحمه الله- في «مفتاح دار السعادة» (٢٦٢/١):**

«وفيه – أيضاً – : تنبيهٌ لأهل العلم على تربية الأمة كما يربي الوالدُ ولدَهُ: فيربُّونهم (بالتدريج، والترقي، من صغار العلم إلى كباره)، وتحميلهم منه ما يطيقون، كما يفعل الأبُ بولده الطفل في إيصاله الغذاء إليه».

❖ **وقال بدرُ الدين بنُ جَماعة –رحمه الله- في «تذكرة السامع والمتكلم» (١٨٩):**

«وإذا شرح محفوظاته (المختصرات)، وضبط ما فيها من الإشكالات والفوائد المهمات:

انتقل إلى بحث (المبسوطات)، مع المطالعة الدائمة، وتعليق ما

يمرُّ به أو يسمعه من الفوائد النفيسة...».

❖ **وقال الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ في «الموافقات»** (٥/١٧٠):

«ومنه أن لا يذكر (للمبتدئ) من العلم: ما هو حظُّ المنتهي، بل يربِّي (بصغار العلم قبل كباره)».

❖ **وقال الإمام أبو الحسن المَاوَرْدي –رحمه الله– في «أدب الدنيا والدين»** (٧١):

«واعلم أن للعلوم (أوائِل) تؤدي إلى (أواخرها)، و (مداخلَ) تفضي إلى (حقائقها).

فليبتدئ طالب العلم (بأوائلها): لينتهي إلى (أواخرها)، و (بمداخلها) ليفضي إلى (حقائقها).

ولا يطلب (الآخرَ) قبل (الأول)، ولا (الحقيقة) قبل (المدخل): فلا يدرك (الآخر)، ولا يعرف (الحقيقة).

لأن البناء على غيرِ أُسٍّ: لا يُبنى، والثمر من غير غرسٍ: لا يُجتنى».

❖ **وقال تاجُ الدين السبكي في «معيد النعم ومبيد النقم»** (١٠٥):

«المثالُ الثامنُ والأربعون: المدرسُ

وحقٌّ عليه أن يحسن إلقاء الدرسِ، وتفهيمه للحاضرين.

- ثـم إن كـانوا (مبتـدئين): فـلا يلقـي علـيهم مـا لا يناسـبهم مـن (المشكلات)، بل يدرِّبهم، ويأخذهم (بالأهون فـالأهون)، إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق.
- وإن كانوا (منتهين): فلا يلقي علـيهم (الواضـحات)، بـل يـدخل بهم في (مشكلات الفقه)...».

❖ **وقال الحافظ ابن حجر – رحمه الله- في «فتح الباري»** (١٦٣/١):

«وكذا التعليم ينبغي أن يكون (بالتدريج)؛ لأنّ الشيء إذا كان في ابتدائه سهلاً: حُبِبَ إلى من يدخل فيه، وتلقاه بانبساط، وكانت عاقبته غالباً الازدياد، بخلاف ضده».

❖ **وروى الحـافظ ابـنُ عبـد الـبرِّ – رحمـه الله – في «جـامع بيـان العلم وفضله»** (٤٣١/١) **بـرقم** (٦٥٢) **عـن يـونس بـن يزيـد قـال: قال لي ابنُ شهاب:**

«يا يونس! لا تكابر العلم: فإنّ العلـم أوديـةٌ، فأيها أخـذت فيـه: قطعَ بك من قبلِ أن تبلُغَهُ.

ولكن خُذْهُ مع الأيـام والليـالي، ولا تأخـذ العلـم جملة، فإن مـن رام

أخذه جملة: ذهب عنه جملة، ولكن الشيءَ بعد الشيءِ، مع الليالي والأيام».

❖ **وقال بهاء الدين، ابن النحاس، الحلبي، النحوي، شيخ الديار المصرية في علم اللسان:**

اليومَ شيءٌ وغدًا مثلُه ... من نُخب العلم التي تُلتقط

يُحصِّل المرءُ بها حكمةً ... وإنما السَّيْلُ اجتماع النُّقط[1]

❖ **وقال فضيلة الشيخ العلامة ابن عثيمين في «منظومة القواعد والأصول»:**

«٥- وبعدُ: فالعلم بحورٌ زاخره ... لن يبلغ الكادحُ فيه آخره

٦- لكِنَّ في أصوله تسهيلا ... لنيله فاحرص تجِدْ سبيلا

٧- فاغتنم القواعدَ الأصولا ... فمن تَفُتْهُ يُحرمِ الوصولا».

❖ **وقال الراغب الأصفهاني – رحمه الله- في «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (١٧٣):**

«فحقه أن يجعل أنواع العلوم: كزاد موضوع في منازل السفر، فيتناول منه في كل منزل قدْر البُلغة، ولا يعرِّج على تقصِّيه واستفراغ ما

(١) بغية الوعاة (١/ ١٤).

فيه، فتقصِّي الإنسان نوعاً واحداً من العلوم على الاستقصار: يستفرغ عمراً، بل أعماراً، ثم لا يدركَ قعره ولا يسبر غوره...

ويجب ألا يخوض في فنٍ، حتى يتناول من الفن الذي قبله - على الترتيب - بلغتَهُ، ويقضي منه حاجته، فازدحام العلم في السمع: مَضلة للفهم...

ويجب أن يقدم الأهم فالأهم من غير (إخلال بالترتيب)، فإن كثيراً من الناس (ثكلوا الوصول بتركهم الأصول).

وحقُّهُ أن يكون قصدُهُ من كلِّ علمٍ يتحراه التبلُغُ به إلى ما فوقَهُ، حتى يبلغ النهاية».

الفصل الثالث

التعامل مع المطولات

- المطلب الأول: حكم القراءة في المطولات
- المطلب الثاني: لماذا يمنع المبتدئ من قراءة المطولات؟
- المطلب الثالث: لماذا تقرأ المطولات؟
- المطلب الرابع: لماذا يختار كثير من طلبة العلم طريق المطولات؟
- المطلب الخامس: جدول مقترح لطلب العلم
- المطلب السادس: الخاتمة

المطلب الأول

حكم القراءة في المطولات

هل يجوز القراءة في المطولات والمبسوطات؟

أم أن هذه الكتب لا تصلح للقراءة ألبتة؟

الجواب: لا شك أن القول الأخير: قولٌ غير صحيح، بل هو منكر من القول.

ولكن الصحيح في المسألة التفصيل.

فحكم القراءة في المطولات يختلف باختلاف القارئ فيها:

- فإذا كان القارئ من (المتوسطين أو المنتهين): فحكمه الإباحة.
- وإذا كان القارئ من (المبتدئين)، يبحث عن مسألة أو مسألتين: فحكمه الإباحة كذلك.

أما إن كان القارئ من (المبتدئين)، يقرأ فيها للدراسة والتعلم فهذا غير جائز

****

المطلب الثاني

لماذا يمنع المبتدئ من قراءة المطولات؟

الجواب:

لأن المطولات إنما وضعت لمن تقدم في الطلب، فاجتاز مرحلة الابتداءِ ومرحلة التوسط.

فالقراءة في المطولات لابد لها من آلة للفهم والتمييز، وهذه الآلة: هي علوم الآلة: أصول اللغة، والفقه، والحديث، وغيرها.

ومن خلا من هذه الآلة، فلن يستطيع فهم المباحث المطروقة بتفصيل في المطولات؛ لأنه سيمر به كثيرٌ من لغة العلم التي لا يتقنها ولا يفهمها، من مثل: العموم، الخصوص، المطلق، المقيد، الناسخ، المنسوخ، المدرج، الشاذ... الخ.

وهذه اللغة – لغة العلم- لا يتقنها إلا من تعلمها.

****

المطلب الثالث

لماذا تُقرأُ المطولات؟

تقرأُ المطولات لأمرين:

١- تنقيح الأفكار بعضها ببعض.

٢- تدوين الفوائد والنكات.

و أحسب أن الأول أجلُّ من الثاني؛ لأنه به تنمو الملكات؛ بخلاف الثاني فإنه يوسع الثقافة فحسب.

****

المطلب الرابع

لماذا يختار كثيرٌ من طلبة العلم طريق المطولات

لماذا يسلكُ كثيرٌ من طلبة العلم طريقة (دراسة المطولات)، ويتركون طريقة (دراسة المختصرات)؟

الجواب:

لأن الطريقة الأولى: سهلةُ المأخذ، ، طريقٌ إلى التشبع بما لم يُعْطَ. بخلاف الطريقة الثانية (طريقة دراسة المتون والمختصرات): فهي طريق طويلة، تحتاج إلى حفظٍ، ومراجعة، وتدقيق.

وثمراتها بطيئةٌ، لكنها ثابتةٌ، مضمونة النتائج.

ولا تصلح للتشبعِ بما لم يعط المرءُ.

****

فإذا جلس صاحب الطريقة الأولى إلى صاحب الطريقة الثانية

وأخذ الأول يقول: قال صاحب المغني، المحلى، المجموع، النيل.

والمسألة خلافية، قال فيها فلانٌ كذا، وفلان كذا:

حَزِن صاحب الطريقة العلمية الثابتة الراسخة، وقال: ما ليَ لا أحصل مثل ما حصَّل؛ إنها لطريق طويلة.

ولكن إذا مضت السُّنونُ والأيامُ: ظهر الفرق

فتدرجَ صاحب الطريقة الراسخةِ العلميةِ إلى التوسطِ فالانتهاء.

وغدا صاحب الطريقة الأولى لا يحمل إلا معلومات مبعثرة من هنا وهناك.

فحينئذ قارن بينهما:

- فإذا سألته عن مأخذ الخلاف حارَ جواباً!.

- وإذا سألته عن وجه الاستدلال: لم يجبك!.

بينما ترى صاحب (طريقة المختصرات): علمه منظمٌ، مرتبٌ، ثابتٌ، مبنيٌّ، لبِنةً فوق لَبِنةٍ.

وما مثلهما إلا كمثل شجرتي الصنوبر والدباء:

ألم ترَ إلى شجرة الصنوبر، تُثمرُ في ثلاثين سنة، وشجرة الدباء، تصعد في أسبوعين، فتدرك الصنوبر!

فتقول شجرة الدباء لشجرة الصنوبر: إنَّ الطريق التي قطعت في ثلاثين سنة: قد قطعتها في أسبوعين؛ فيقال لك: شجرة، ولي: شجرة!!!.

فتقول شجرة الصنوبر: مهلاً إلى أنْ تهب ريح الخريف[1].

وكذلك لصاحب (طريقة المختصرات) أن يقول لصاحب (طريقة المطولات): مهلاً إلى أن تهب ريح خريف الطلب!.

---

(١) اللطائف – لابن الجوزي (٢٢).

المطلب الخامس

جدول مقترح لطلب العلم

المرحلة	العقيدة	علوم القرآن	التفسير	أصول الفقه	الفقه	أحاديث الأحكام	مصطلح الحديث	النحو
الأولى	القول المفيد شرح كتاب التوحيد لابن عثيمين	مقدمات أساسية في علوم القرآن لعبد الله الجديع	تيسير الكريم الرحمن لابن سعدي	شرح الأصول من علم الأصول لابن عثيمين	الدرر البهية للشوكاني	عمدة الأحكام لعبد الغني المقدسي	الموقظة للذهبي	شرح الآجرومية لابن عثيمين
الثانية	شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين	مناهل العرفان للزرقاني	تفسير القرآن العظيم لابن كثير	أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله لعياض السلمي	الإقناع لابن المنذر	بلوغ المرام لابن حجر	نزهة النظر لابن حجر	شرح قطر الندى لابن هشام
الثالثة	شرح الرسالة التدمرية لعبد الرحمن بن ناصر البراك	الإتقان في علوم القرآن للسيوطي	تفسير الطبري	البحر المحيط للزركشي	الشرح الممتع لابن عثيمين	المنتقى للمجد ابن تيمية	فتح المغيث للسخاوي	شرح ألفية ابن مالك لابن عقيل

المطلب السادس

الخاتمة

وختاماً أخي القارئ، فإني مُعْترفٌ بقصوري فيما اعتمدت عن الغاية، وتقصيري عن الانتهاء إلى النهاية، فأسأل الناظر فيه أن لا يعتمد العَنَتَ، ولا يقصد قَصْدَ من إذا رأى حسناً ستره، وعيباً أظهره.

وليتأَمَّلْه بعين الإنصاف، لا الانحراف، فمن طلب عيباً وجدَّ: وَجَد، ومن افتقد زلل أخيه بعين الرضى: فَقَدْ فَقَدَ.

فرحم الله أمرءاً قهر هواه، وأطاع الإنصاف ونواه، وعَذَرنا في خطأ إن كان منا، وزلل إن صدر عنا، فالكمال محالٌ لغير ذي الجلال، فالمرءُ غير معصوم، والنسيانُ في الإنسان غير معدوم.

وإن عجز عن الاعتذار عنا والتصويب، فقد علم أن كل مجتهد مصيب، فإنا وإن أخطأنا في مواضع يسيرة، فقد أصبنا في مواطن كثيرة.

فما عَلِمنا فيمن تَقَدَّمنا من العلماء وأمَّنا من الأَئمة القدماء أحداً إلا وقد نُظِمَ في سِلْكِ أهلِ الزلل، وأُخِذَ عليه شيءٌ من الخطل، وهُم هُم.

فكيف بنا مع قصورنا واقتصارنا، وَصَرْف جلِّ زماننا في نهمة الدنيا، وطلب المعاش، وتنميق الرياش، الذي مرادنا منه، صيانةُ العِرض، وبقاءُ ماءِ الوجه لدى العَرْضِ.

غير أني أرغبُ إلى الناظر فيه أن يترحَّمَ عليَّ، ويعطفَ جِيدَ دعائِهِ إليّ، فذلك ما لا كلْفَةَ فيه عليه، ولا ضرر يرجع به إليه، فربما انتفعتُ بدعوته، وفزتُ بما قد أَمِنَ هو من معرَّته[1].

وكتب حامداً ومصلياً ومسلماً

أفقر العباد إلى عفو ربه

فراس بن خليل مشعل

غفر الله له ولوالديه

---

(١) معجم الأدباء (١/ ١١-١٢).

الفهرست

صدر للمؤلف

(١) «قاعدة الأحكام التي تختلف بالسفر والإقامة» لشيخ الإسلام ابن تيمية، قدَّم له فضيلة الشيخ مشهور بن حسن آل سلمان، طبع عن دار أضواء السلف، بالرياض.

(٢) «رسالة الإمام أبي بكر البيهقي إلى الإمام أبي محمد الجويني» طبع عن دار البشائر الإسلامية، بيروت.

(٣) «ذكر صلاة التسبيح» للخطيب البغدادي، قدم له فضيلة الشيخ مشهور بن حسن آل سلمان، طبع عن الدار الأثرية، بعمّان.

(٤) «الخمسة العمَّانية – عَمَّان البلقاء –» لابن المبرد، طبع عن أمانة عمّان الكبرى.

(٥) «اللآلئ الحسان مما جاء فيه ذكرٌ لعمان»، طبع في ذيل الكتاب السابق.

(٦) «الرجعة لبيان الضجعة بين سنة الفجر والفريضة» لحامد بن علي العمادي، طبع عن الدار العثمانية، بعمان.

(٧) «اللمعة في تحريم المتعة» لحامد بن علي العمادي، طبع عن دار ابن الجوزي، بعمَّان.

(٨) «المسح على الخفين المنخرقين» لشيخ الإسلام ابن تيمية، طبع عن الدار العثمانية، بعمَّان.

(٩) «إضاءة البدرين في ترجمة الشيخين – البخاري ومسلم –» لأبي الفداء العجلوني، طبع عن دار ابن تيمية، بعمَّان.

(١٠) «طبقات الحنفية» لعلي بن أمر الله الحنائي، طبع عن دار ابن الجوزي، بعمان.

(١١) «التدرج في طلب العلم – (العلم الواحدُ) أنموذجا –»، طبع عن منتدى العلم النافع، بعمَّان.

وتحت الإعداد

(١٢) «حاجة طالب العلم إلى علم النحو».